

التحرير والتنوير

وإضافة آية إلى الليل وإلى النهار يجوز أن تكون بيانية أي الآية التي هي الليل والآية التي هي النهار . ويجوز أن تكون آية الليل الآية الملازمة له وهي القمر وآية النهار الشمس فتكون إعادة لفظ (آية) فيهما تنبيها على أن المراد بالآية معنى آخر وتكون الإضافة حقيقية ويصير دليلا آخر على بديع صنع الله تعالى وتذكيرا بنعمة تكوين هاذين الخلقين العظيمين . ويكون معنى المحو أن القمر مطموس لا نور في جرمه ولكنه يكتسب الإنارة بانعكاس شعاع الشمس على كرتة ومعنى كون آية النهار مبصرة أن الشمس جعل ضوءها سبب إبصار الناس الأشياء ف (مبصرة) اسم فاعل (أبصر) المتعدي . أي جعل غيره باصرا . وهذا أدق معنى وأعمق في إعجاز القرآن بلاغة وعلماء فإن هذه حقيقة من علم الهيئة . وما أعيد لفظ (آية) إلا لأجلها .

والمحو : الطمس . وأطلق على انعدام النور لأن النور يظهر الأشياء والظلمة لا تظهر فيها الأشياء فشبه اختفاء الأشياء بالمحو كما دل عليه قوله في مقابله (وجعلنا آية النهار مبصرة) أي جعلنا الظلمة آية وجعلنا سبب الإبصار آية . وأطلق وصف (مبصرة) على النهار على سبيل المجاز العقلي إسنادا للسبب .

وقوله (لتبتغوا فضلا من ربكم) علة لخصوص آية النهار من قوله (آيتين) . وجاء التعليل لحكمة آية النهار خاصة دون ما يقابلها من حكمة الليل لأن المنة بها أوضح ولأن من التنبيه إليها يحصل التنبيه إلى ضدها وهو حكمة السكون في الليل كما قال (لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) كما تقدم في سورة يونس .

ثم ذكرت حكمة أخرى حاصلة من كلتا الآيتين . وهي حكمة حساب السنين وهي في آية الليل أظهر لأن جمهور البشر يضبط الشهور والسنين بالليالي أي حساب القمر .

العام عطف من (السنين عدد) على فاعله والفصول والشهور الأيام حساب يشمل والحساب A E على الخاص للتعميم بعد ذكر الخاص اهتماما به .

وجملة (وكل شيء فصلناه تفصيلا) تذييل لقوله (وجعلنا الليل والنهار آيتين) باعتبار ما سبق له من الإشارة إلى أن للشر والخير الموعود بهما أجلا ينتهيان إليه . والمعنى : أن ذلك الأجل محدود في علم الله تعالى لا يعدوه فلا يقربه استعجال ولا يؤخره استبطاء لأن الله قد جعل لكل شيء قدرا لا إبهام فيه ولا شك عنده .

أن للخير وللشر مدى.....

فلا تحسبوا ذلك وعدا سدى .

والتفصيل : التبيين والتمييز . وهو مشتق من الفصل بمعنى القطع لأن التبيين يقتضي عدم التباس الشيء بغيره . وقد تقدم في قوله تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) صدر سورة هود .

والتفصيل في الأشياء يكون في خلقها ونظامها وعلمها بها وإعلامه بها . فالتفصيل الذي في علم الله وفي خلقه ونواميس العوالم عام لكل شيء وهو مقتضى العموم هنا . وأما ما فصله الله للناس من الأحكام والأخبار فذلك بعض الأشياء ومنه قوله تعالى (يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) وقوله (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) . وذلك بالتبليغ على ألسنة الرسل وبما خلق في الناس من إدراك العقول ومن جملة ما فصله للناس والإرشاد إلى التوحيد وصالح الأعمال والإنذار على العصيان . وفي هذا تعريض بالتهديد . وانتصب (كل شيء) بفعل مضمَر يفسره (فصلناه) لاشتغال المذكور بضمير مفعول المحذوف . (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقياه منشورا [13] اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا [14])